الفن خارج منطق الأخلاق!

سعيد توفيق

فوتغرافيا : لارى كلارك

يقول معلمنا أفلاطون فى كتاب «الجمهورية»: «فى دولتنا سيظل الملاح ملاحاً، والإسكافى إسكافياً»، وكان قصد أفلاطون أن كل طبقة فى الدولة ينبغى أن تضطلع بالوظيفة المنوطة بها، فلا تجور طبقة على طبقة، ولا مهنة على مهنة، وإلا فسدت الدولة وعل[...]ها الديماجوجية. أسوق ملاحظة أ[فلا]طون الأ[...] هنا وفى خاطرى الأزمة التى حدث[ت فى] حياتنا الثقافية عندما رأى [...] رجال الدين فى رواية «وليمة لأعشاب البحر» ما يمس العقيدة الدينية، وعندما رأى مؤخراً بعض من ينتمون إلى الجماعات الدينية ما يخدش الحياء العام فى روايات جديدة صادرة عن هيئة قصور الثقافة. ولقد سبق أن حذرت فى ندوة عامة عن «الإبداع والتأويل» من أن الأزمة التى حدثت حول رواية «الوليمة» يمكن أن تحدث من جديد، مالم نلتفت إلى حقيقة الداء فى وضعنا الثقافى المهوش. فلاشك أن المناخ الثقافى العام هو الذى أفرز الأزمة فى كلتا الحالتين، حينما أتاح لبعض رجال الدين أن يتخذوا من الدين مهنة لا تكون مهمتها العكوف على شئون الدين فحسب، وإنما أيضاً الرقابة على شئون الدنيا، بما فى ذلك الرقابة على الأعمال الفنية وتحديد مهام وشروط الإبداع الفنى فى عمومه. وبذلك استباح رجل الدين لنفسه شأن الفن، واختلطت مهمته لا فحسب بمهمة الناقد، وإنما أيضاً بمهمة فيلسوف الفن وعالم الجمال. وقد أتاح هذا المناخ لبعض من ينتمون إلى الجماعات الدينية التفتيش والتنقيب فى الأعمال الفنية والأدبية عن شىء يصورونه مخالفاً للأخلاق، وبالتالى يمكن استثماره كورقة تصلح للضغط والابتزاز السياسى من خلال التلويح بتواجدهم الجديد الذى لا يقوم على العنف المباشر، وإنما على السيطرة عبر التغلغل إلى مراكز اتخاذ القرار والتأثير عليها.

●●●

وبصرف النظر عن تحليل الدوافع وقراءة النوايا، فإن الأمر المؤكد هو أن كل ما جرى من قبل ولازال يجرى من أحداث مؤسفة، إنما هو إفراز لخلل فى حياتنا الثقافية. فليست الروايات التى يدور الخلاف حولها هى بيت القصيد الذى ينبغى أن ننشغل به، وإنما هى مجرد مناسبة عملت على كشف وتعرية وعينا الثقافى العام الذى يعكس رؤيتنا للعالم والحياة، وبالتالى يعكس رؤيتنا وفهمنا لمعنى الفن والإبداع ودورهما فى حياتنا. أقول هذا وفى ذهنى أن الداء المستحكم فى واقعنا الثقافى هو غياب الوعى بالمفاهيم الأساسية الذى يعبر عن نفسه أحياناً فى صورة بشعة هى خلط المفاهيم. ذلك أن غياب المفاهيم فى حد ذاته قد يكون أخف ضرراً من تحققها بصورة مختلطة ومشوشة. ومن صور هذا الخلط الخلط بين العلم والدين الذى أنتج تلك الظاهرة التى عانينا منها طويلاً تحت مسمى «أسلمة العلوم». ومن صوره أيضاً الخلط بين الفن والأخلاق أو بين منطق القيم الفنية والجمالية ومنطق القيم الدينية والأخلاقية. وقد ترتب على هذا أمر خطير فيما يتعلق بوضعنا إزاء عالم يتطور من حولنا بشكل متسارع. إذ نجد أن العالم المتحضر من حولنا لا يصادف ذلك النوع من المشكلات التى نصادفها والناس فى العالم المتحضر تعرف ماهو الفن، وما هو الإبداع، وهى تستمتع بتلقى هذا الإبداع وتجنى ثماره، وتترك المبدعين ليواصلوا إبداعهم والمؤولين ليؤولوا هذا الإبداع. أما نحن فلازلنا منشغلين بالتناحر حول المفاهيم الأساسية التى فرغت منها البشرية، ورسمت الحدود بينها. وهذا أمر ظاهر فى تلك المجادلات والمناظرات، وربما المهاترات أحياناً التى تدور حول الأزمة الراهنة. فلازلنا منشغلين بالتساؤل عما هو الإبداع وما حدوده؟ وهل حرية المبدع مطلقة، مع تسليمنا بأنه لا وجود لحرية مطلقة؟! وهل يجوز للمبدع أن يعرض فى فنه أو أدبه لشىء يخدش الحياء العام؟ وهكذا تثار هذه التساؤلات وكأن مصر بعراقتها الثقافية لم تعرف من قبل إبداعاً فى الفن والأدب، ولم تعرف نقاداً أفذاذاً وأساتذة فى شئون الفن. وليتنا تركنا لأهل الاختصاص أن يجيبوا عن هذه التساؤلات، بل تُرك الأمر لغير أهله. والملاحظ بوجه عام أن التساؤلات السابقة المطروحة فى الأزمة الراهنة تدور حول مسألة علاقة الفن بالأخلاق. وتلك هى المسألة التى أريد أن أتوقف عندها لأسوق بعض الملاحظات الأولية.

أود التأكيد بداية على أن التصور الأخلاقى للفن والأدب، أعنى التصور الذى يخلط بين القيم الفنية والجمالية من جهة والقيم الأخلاقية والدينية من جهة أخرى، وبالتالى يسعى إلى تقييم الفن بمنطق الأخلاق، هذا التصور لا يشيع إلا فى أكثر العصور انحطاطاً، وهى العصور التى يتقلص فيها الإبداع فى شئون الدنيا من فن وفكر وعلم بسبب نوع من القمع السياسى، فتتجه إلى التقوقع داخل رؤية دينية جامدة وضيقة وسطحية لا تستطيع إدراك القيم الجمالية والفنية بوصفها قيماً مستقلة، ولا تفهم أن الرؤية الدينية الرحبة هى نفسها الرؤية التى تعلمنا أن ننظر إلى الجمال فى الطبيعة باعتباره إبداعاً إلهياً مقصوداً لكى نتعلم منه كيف نقدر الجمال باعتباره قيمة مستقلة بذاتها لا يمكن تفسيرها أو تبريرها خارج منطق الإبداع الجمالى الخالص، ولكى نحاول أن نحاكى هذا الجمال المبدع، لا بأن نقلده، وإنما بأن نخلق كيانات أخرى وفقاً لنفس المنطق: منطق الإبداع الجمالى الخالص. وهذا هو أصل الإبداع الفنى.

فالفن إذن له قوانينه الذاتية، أى أنه لا يخضع سوى لمنطقه الخاص، وهو منطق إبداع القيم الفنية والجمالية. ومن ثم لا يجوز محاكمة الفن أو تقييمه بمنطق الأخلاق، بل ينبغى استبعاد التصور الأخلاقى من فهمنا للإبداع الفنى. وهذا لا يعنى أن الفن (بما فى ذلك الأدب) يكون بطبيعته ضد الأخلاق، بل يعنى أن الفن يكون بطبيعته محايداً من جهة الأخلاق، فلا يوصف بأنه أخلاقى moral أو لا أخلاقى amoral anti-moral.

ولتوضيح مفهوم «الحياد الأخلاقى للفن» الذى قد يلتبس على البعض، نقول: إن العمل الأدبى أو الفنى عموماً قد ينطوى فى مضمونه على ما شابه ذلك من العبارات التى يمكن أن تخدش الحياء العام وتسىء إلى الشعور الدينى، ومن ثم يجب استبعادها باسم الأخلاق. والذين يرددون هذا القول هم أيضاً غافلون أو متغافلون عن حقيقة الأدب (والفن عموماً) من حيث لغته وقوانينه الأولية. فمن أهم الخصائص العامة والشروط الأولية التى تميز لغة الأدب أنها لغة إيحائية مراوغة أو غير مباشرة ولا تكون أبداً لغة تقريرية أى لا تكون مقصودة لأجل إصدار أحكام على الواقع أعنى لا تكون مقصودة لأجل وصف تسجيلى لواقع ما. فاللغة هنا تحيا على مستوى التخيل وترد (كما فى حالة الابداع الروائى) على لسان شخصيات متخيلة.

فحتى عندما تكون هذه الشخصيات مستمدة من الواقع، فإنها تصبح فى العمل الأدبى جزءاً من نسيج لا واقعى متخيل وهذا يصدق حتى على رواية السيرة الذاتية التى يكون فيها المبدع حاضراً بشخصه فى العمل. فالمبدع هنا لا يقصد - أو لا ينبغى له أن يقصد - رفع هذه التفاصيل الواقعية إلى حالة حضور - أى إلى دلالة كلية تتجاوز الواقعى الجزئى كما لو كان يمارس فعل الاستمناء أو بقصد اثارة الشهوة الجنسية لدى القارىء لكى يتلصص عليها (على شخصها) من ثقب الباب. ولهذا فإن قوانين لغة الأدب هى التى تفرض على الأديب الا تأتى لغته كما لو كانت تقريراً أو تصريحاً مباشراً بأحواله الذاتية التى تخصه وحده. كأن تكون تصريحاً بمواقفه الايديولوجية أو السياسية، أو الدينية أو الاخلاقية، لأن مثل هذه المواقف تعنى اتخاذ استراتيجية ما إزاء واقع ما. إزاء واقعة من الوقائع، وهذا ينقض شرط الفن.

ونفس المنطق يصدق على لغة الفن فى عمومه. فكل ابداع فنى هو ابداع لشكل جمالى مغاير للواقع، وله القدرة على تجاوز الواقع او نفيه حتى حينما يكون مستمداً من موضوع واقعى. والشخص الذى لا يحسن قراءة لوحة تجريدية لن يحسن قراءة لوحة كلاسيكية، حتى وان كانت لوحة الجيوكندا الشهيرة: فهو لن يستطيع ادراك ان الجيوكندا التى صورها دافنشى على نسيج لوحته لم تعد هى تلك المرأة الواقعية التى كانت زوجة لجاكوبى جيوكندو، لانها قد اكتسبت من خلال مفردات دافنشى التشكيلية دلالة انسانية كلية رفعت الجزئى الواقعى الى حالة حضور كلى مرة واحدة والى الابد. وبالمثل، فإن من لا يفهم لغة الفن سوف يرى راقصات الباليه على خشبة المسرح كأجسام واقعية شبه عارية، فى حين ينبغى له ان يرى هذه الشخوص المتحركة على المسرح بوصفها اجساماً مفعمة بالعواطف والانفعالات. وقادرة على ان تصور من خلال حركة وإيماءة البدن شتى المشاعر الإنسانية.

ولو نظرنا الآن فى ضوء كل هذا إلى الإبداع فى واقعنا الراهن، وإلى الأزمة المثارة الآن حول مسألة الإبداع، فإننا لابد أن نعترف صراحة بأن هناك من الأعمال الأدبية والفنية [...] شرط الفن التى توهمنا إلى بعض

... الخالص، وفى خارج منطق الإبداع الجمالى الخالص، لا بأن نحاول أن نحاكى هذا الجمال المبدع، لا بأن نقلده، وإنما بأن نخلق كيانات أخرى وفقاً لنفس المنطق: منطق الإبداع الجمالى الخالص. وهذا هو أصل الإبداع الفنى.

فالفن إذن له قوانينه الذاتية، أى أنه لا يخضع سوى لمنطقه الخاص، وهو منطق إبداع القيم الفنية والجمالية. ومن ثم لا يجوز محاكمة الفن أو تقييمه بمنطق الأخلاق، بل ينبغى استبعاد التصور الأخلاقى من فهمنا للإبداع الفنى. وهذا لا يعنى أن الفن (بما فى ذلك الأدب) يكون بطبيعته ضد الأخلاق، بل يعنى أن الفن يكون بطبيعته محايداً من جهة الأخلاق، فلا يوصف بأنه أخلاقى mo-ral أو لا أخلاقى amoral anti-moral.

ولتوضيح مفهوم «الحياد الأخلاقى للفن» الذى قد يلتبس على البعض، نقول: إن العمل الأدبى أو الفنى عموماً قد ينطوى فى مضمونه على قيم أخلاقية أو لا ينطوى عليها، ولكن قيمته الفنية والجمالية تظل مستقلة عما ينطوى عليه. فالشاعر- على سبيل المثال- قد يكتب القصيدة فى موضوع دينى، ولكن قصيدته قد لاتكون لها أية قيمة من الناحية الفنية. وفى مقابل ذلك، فإن شاعراً آخر قد يكتب قصيدة فى الغزل أو الملاذ وتكون قصيدته عالية القيمة من الناحية الفنية. وليس معنى ذلك أن القصيدة الدينية تكون بطبيعتها ضئيلة القيمة من الناحية الفنية، وإنما المقصود أن ما يجعل القصيدة عملاً فنياً هو شىء آخر غير كونها دينية، شىء آخر يتجاوز القيم الدينية والأخلاقية المتضمنة فيها. فهى ينبغى أن تكون أولاً وأخيراً منظومة أو منثورة بلغة الشعر ووفقاً لجماليات الشعر، بصرف النظر عن طبيعة الموضوع الذى يتناوله الشاعر. فالشاعر قد يتغنى بالملذات مثلما يتغنى بالتصوف، وقد يتغنى بهما معاً فى نفس اللحظة؛ لأن الوجود كله ملك للشاعر- مثلما هو ملك لكل اديب أو فنان- يتغنى به أو يصوره كيفما شاء، طالما كان يصوره بلغة الفن. ومن هنا يمكن أن نفهم معنى الحرية فى الابداع الفنى، فهى حرية مطلقة ومقيدة فى نفس الوقت: مطلقة بمعنى أن للمبدع أن يصور ما شاء له أن يصور، ومقيدة بمعنى أنها مشروطة بقوانين الابداع الفنى ذاته. فالفن- بما فى ذلك الأدب- هو كاللعب الذى يكون حرا تماما إلا من قواعد اللعبة نفسها، والمبدع كاللاعب لا يكون محكوما بأى قوانين خارج حدود اللعبة نفسها.

وربما يقال هنا- مثلما يردد البعض الآن- إن من الاعمال الادبية ما ينطوى على عبارات وقحة أو إباحية أو تصور تفاصيل جنسية وما

التى صورها دافنشى ... هى تلك المرأة الواقعية التى كانت زوجة لجاكوبى جيوكندو، لانها قد اكتسبت من خلال مفردات دافنشى التشكيلية دلالة انسانية كلية رفعت الجزئى الواقعى الى حالة حضور كلى مرة واحدة والى الابد. وبالمثل، فان من لا يفهم لغة الفن سوف يرى راقصات الباليه على خشبة المسرح كأجسام واقعية شبه عارية، فى حين ينبغى له ان يرى هذه الشخوص المتحركة على المسرح بوصفها اجساما مفعمة بالعواطف والانفعالات. وقادرة على ان تصور من خلال حركة وإيماءة البدن شتى المشاعر الإنسانية.

ولو نظرنا الآن فى ضوء كل هذا إلى الإبداع فى واقعنا الراهن، وإلى الأزمة المثارة الآن حول مسألة الإبداع، فإننا لابد أن نعترف صراحة بأن هناك من الأعمال الأدبية والفنية ما ينقض شروط الفن التى نوهنا إلى بعض منها، وهى بذلك تحكم على نفسها بالسقوط من دائرة الإبداع، وبالتالى بالموت عند ميلادها. وقد تكون الأعمال الأخيرة المثار حولها الجدل من هذا القبيل أو لا تكون. فهذا لا يهم الآن. فالقضية الجوهرية هى أن الحكم على العمل الفنى أو الأدبى وتفسيره ينبغى أن يكون من اختصاص أولى الأمر، وأولو الأمر فى الفن هم العارفون بحقيقته ومعاييره. فما بالك بجعل الأمر مرهوناً بأولئك الذين يحسبون على التيارات الدينية التى تريد العودة بنا إلى عصور مظلمة. وما كان أيسر على وزير الثقافة أن يحيل الأمر إلى جهة الاختصاص لتنظر فيها من الناحية الفنية وتحدد مدى أهليتها للنشر والتداول، موجهاً بذلك تحذيراً واضحاً لكل من تسول له نفسه أن يستخدم الدين والأخلاق سلاحاً للقمع أو للإرهاب أو للابتزاز السياسى. لأن التهاون فى هذا الأمر سوف يؤدى إلى تقديم تنازلات أكبر باستمرار، خاصة بعد أن بات من الواضح الآن أن التيار الدينى الأصولى فى مصر يغير من جلده بتحقيق استراتيجيته فى سلطة الدين من خلال السلطة القائمة بالفعل وعبر مؤسساتها الرسمية. وربما نجد غداً من يطالبون بالرقابة على سائر إبداعات الفنون، وعلى أجهزة الإعلام، وربما على الفلسفات والفنون والآداب التى تدرس فى الجامعات والمعاهد. وفى هذا مكمن الخطر الذى ينبغى أن تلتفت إليه الدولة؛ لأنه لا يهدد فحسب مستقبل الثقافة فيها، وإنما يهدد أيضاً أمنها واستقرارها.

★ أستاذ الفلسفة وعلم الأخلاق بآداب القاهرة

CamScanner